فوائد وثمرات الاستغفار

إنّ شريعة الله جاءت بما فيه صلاح البلاد والعباد، جاءت بالحث على كل خير، والتحذير من كل شر، فكل خير قد حثّنا المولى عليه، وكل شر حذرنا منه، ومما حثّنا عليه الاستغفار؛ فقد جاءت نصوص كثيرة بالحث عليه، والترغيب فيه، ومدح أهله، ومن ذلك قوله – تعالى –: «واستغفروا الله إنّ الله غفورٌ رحيمٌ» «البقرة: 199»، وقوله: «وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه» «هود: 3».

وقوله: «والمستغفرين بالأسحار» «آل عمران: 17»، وقوله: «وبالأسحار هم يستغفرون» «الذاريات: 18»، وقوله: «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله» «آل عمران: 135»، وقوله: «ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما» «النساء: 110».

وكقوله – صلى الله عليه وسلم – كما في الحديث الذي رواه مسلمٌ في «صحيحه» عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا فتستغفروا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله: فيغفر الله لهم».

وليس في الحديث التساهل في الوقوع في الذنب، ثم الاستغفار بعد ذلك؛ وإنما فيه بيان لحالة العبد بعد توبته واستغفاره من الذنب، وأنه إذا أذنب فقد جعل الله له مخرجا من ذلك بالتوبة والاستغفار.

قال ابن عثيمين – رحمه الله –: «وهذا ترغيب في أن الإنسان إذا أذنب فليستغفر الله، فإنه إذا استغفر الله – عز وجل – بنية صادقة، وقلب موقن، فإن الله – تعالى – يغفر له: «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم» «الزمر: 53»» «شرح رياض الصالحين»، وغير ذلك من نصوص الكتاب والسنة الدالة على الاستغفار والمرغبة فيه.

وإذا تاب العبد إلى ربه، واستغفره وأناب إليه؛ فإن نفع ذلك يعود إلى العبد نفسه، فإن الله يكرمه بكرامات عديدة، ويمنحه فوائد جليلة، ويُغدق عليه بذلك ثمرات كثيرة، ومن هذه الفوائد والثمرات ما يلي:

أولاً: الاستجابة لنصوص الكتاب والسنة:

التي جاءت بالحث على ذلك، وكذلك الاقتداء والتأسي بأنبياء الله ورسله؛ فإنهم كانوا يكثرون من التوبة والاستغفار، وكذلك التشبه بكل عبد صالح مستغفر.

ثانيا: المتاع الحسن في الدنيا، وإيتاء كل ذي فضل فضله في الآخرة:

قال الله – جل شأنه –: «وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله» «هود: 3».

يقول ابن كثير – رحمه الله – عند تفسيره لهذه الآية: «أي: وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة، والتوبة منها إلى الله – عز وجل – فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك: «يمتعكم متاعا حسنا» «هود: 3»؛ أي: في الدنيا «إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله» «هود: 3»؛ أي: في الدار الآخرة» «تفسير القرآن العظيم» «2/ 436».

ثالثا: إنزال المطر وزيادة القوة:

قال – تعالى – عن هود – عليه السلام – أنه قال لقومه: «ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين» «هود: 52».

يقول البغوي – رحمه الله – عند تفسيره لهذه الآية: «أي: يرسل المطر عليكم متتابعا مرة بعد أخرى في أوقات الحاجة، «ويزدكم قوة إلى قوتكم» «هود: 52»؛ أي: شدة مع شدتكم، وذلك أن الله – عز وجل – حبس عنهم القطر ثلاث سنين، وأعقم أرحام نسائهم، فلم يلدن» «معالم التنزيل» «1/ 288».

فالاستغفار مع الإقلاع عن الذنب سبب للخصب والنماء وكثرة الرزق وزيادة العزة والمنعة، يقول ابن كثير – رحمه الله –: «ومن اتصف بهذه الصفة – أي: صفة الاستغفار – يسّر الله عليه رزقه، وسهّل عليه أمره، وحفظ عليه شأنه وقوته؛ ولهذا قال: «يرسل السماء عليكم مدرارا»» «تفسير القرآن العظيم» «2/ 450».

رابعا: إجابة الدعاء:

قال – تعالى – حاكيا عن صالح – عليه السلام – أنه قال لقومه: «يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب» «هود: 61»، فوعد الله من استغفره وتاب إليه بإجابة الدعاء، وشواهد ذلك في التاريخ كثيرة.

خامسا: أن المستغفرين ممن شملتهم رحمة الله ووده:

فهذا نبي الله شعيب – عليه السلام – يقول لقومه: «واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود» «هود: 90».

قال الطبري – رحمه الله –: ««ثم توبوا إليه» «هود: 90»، ارجعوا إلى طاعته، والانتهاء إلى أمره ونهيه، «إن ربي رحيم» «هود: 90»، رحيم بمن تاب وأناب إليه أن يعذبه بعد التوبة «ودود» «هود: 90»، ذو محبة لمن أناب وتاب إليه يوده ويحبه»؛ انظر: «الجامع لأحكام القرآن» «12/105».

سادسا: أن به تُجلب النعم وتُدفع النقم:

يقول الله – تعالى – على لسان نوح – عليه السلام – أنه قال لقومه: «ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا × فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا × يرسل السماء عليكم مدرارا × ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا» «نوح: 9 – 12».

يقول ابن كثير – رحمه الله –: «أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين؛ أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها» «تفسير القرآن العظيم» «4/ 426»، كل هذه النعم تستجلب بالاستغفار.

سابعا: دفع العقوبة عن صاحبه ومنع نزول المصائب:

لما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي في «جامعه»، وهو حديث مختلف في تصحيحه وتضعيفه بين العلماء: عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي: «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» «الأنفال: 33»، إذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة»، فإن كان الحديث ضعيفا فالآية خير شاهد على ذلك.

فإذا كثرت الذنوب، وقلّ الاستغفار أو انعدم، فالعذاب سيحصل لا محالة؛ لقوله – تعالى –: «وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» «الأنفال: 33»، فالاستغفار سبب لمنع العذاب.

ثامنا: ومن فوائده أنه سببٌ في هلاك الشيطان:

فقد قال ابن القيم – رحمه الله –: إن إبليس قال: «أهلكت بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار وبـ«لا إله إلا الله»، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يتوبون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» «مفتاح دار السعادة» «1/ 158».

جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد وحسّنه شعيب الأرنؤوط: عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: «إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني».

تاسعا: أن بسببه تحل المشاكل الصعبة والعويصة:

فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية كما يقول تلميذه ابن القيم – رحمه الله –: «وشهدت شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – إذا أعيته المسائل واستعصت عليه، فرّ منها إلى التوبة والاستغفار والاستعانة بالله واللجوء إليه، واستنزال الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته، فقلما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مدا، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه، بأيتهن يبدأ» «إعلام الموقعين» «4/ 172».

فإذا أعيتك المسائل، وصعب عليك حلها، ففرّ إلى الاستغفار، وصدق الله القائل: «يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا» «الأنفال: 29»، تفرقون به بين الحق والباطل، والسنة والبدعة.

عاشرا: أنه سببٌ لانشراح الصدر:

لما جاء في الحديث الذي في مسلم عن الأغرّ المزني – وكانت له صحبة – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: «إنه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

وجاء في حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل همّ فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب».

يقول المناوي – رحمه الله –: «قال الحكيم: وأشار بالإكثار إلى أن الآدمي لا يخلو من ذنب أو عيب ساعة فساعة، والعذاب عذابان: أدنى وأكبر، فالأدنى عذاب الذنوب والعيوب، فإذا كان العبد مستيقظا على نفسه فكلما أذنب أو أعتب أتبعهما استغفارا، فلم يبق في وبالها وعذابها، وإذا لها عن الاستغفار تراكمت ذنوبه؛ فجاءت الهموم والضيق والعسر والعناء والتعب، فهذا عذابه الأدنى، وفي الآخرة عذاب النار، وإذا استغفر تنصل من الهم؛ فصار له من الهموم فرجا، ومن الضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب» «فيض القدير» «6/82».

فبالاستغفار يصفو القلب وينقى، كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه الترمذي وقال: «حسن صحيح»، وصححه الألباني: عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى يعلو قلبه ذاك الرين الذي ذكر الله – عز وجل – في القرآن: «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» «المطففين: 14».

والاستغفار له تأثير عجيب في زوال الهموم والغموم وتفريج الكروب، يقول ابن القيم – رحمه الله – مبيّنا ذلك: «فالمعاصي والفساد توجب الهمّ والغمّ والخوف والحزن وضيق الصدر، وأمراض القلب، حتى إن أهلها إذا قضوا منها أوطارهم وسئمتها نفوسهم ارتكبوها دفعا لما يجدونه في صدورهم من الضيق والهمّ والغمّ... وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام في القلوب فلا دواء لها إلا التوبة والاستغفار» «زاد المعاد» «4/ 208 – 209».

حادي عشر: إنّ المستغفر يتعبّد لربّه – عزّ وجل – ويقرّ له بصفة الغفار:

فهو يستشعر معنى قوله – تعالى –: «وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى» «طه: 82»، ويستشعر كذلك جميع الآيات التي وعد الله أو أخبر أو سمّى أو وصف نفسه بالمغفرة والغفور والغفار، وما أشبه ذلك.

ويستشعر كذلك حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – في البخاري قال: سمعت النبيّ – صلى الله عليه وسلم – قال: «إن عبدا أصاب ذنبا – وربما قال: أذنب ذنبا – فقال: رب، أذنبت – وربما قال: أصبت – فاغفر لي، فقال ربه: أعلم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي...» الحديث.

ثاني عشر: ومن أهمّ فوائد الاستغفار وثمراته – وقد أخرناها لأهميتها – أنه دواء الذنوب:

جاء في «شعب الإيمان» للبيهقي: عن سلام بن مسكين قال: سمعت قتادة، يقول: «إنّ هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم: فالذنوب، وأما دواؤكم: فالاستغفار».

والناس يخطئون ولكن بالتوبة والاستغفار يغفر الله الذنوب: جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم في «صحيحه»: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم».

والله – عزّ وجل – يقول: «ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما» «النساء: 110».

وأخرج أبو داود وصححه الألباني عن أسماء بن الحكم الفزاري قال: سمعت عليًا – رضي الله عنه – يقول: كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حديثا نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته فإذا حلف لي صدقته، قال: وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر – رضي الله عنه – أنه قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: «ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله، إلا غفر الله له».

وأخرج أحمد في «مسنده» والترمذي وصححه الألباني: عن أبي ذرّ – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – فيما يروي عن ربه – عزّ وجل – أنه قال: «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني فإني سأغفر لك على ما كان فيك، ولو لقيتني بقراب – أي: بما يقارب ملأها – الأرض خطايا للقيتك بقرابها مغفرة، ولو عملت من الخطايا حتى تبلغ عنان السماء ما لم تشرك بي شيئا ثم استغفرتني لغفرت لك ثم لا أبالي».

سبحان من يعفو ونهفو دائما ——— ولم يزل مهما هفا العبد عفا
يعطي الذي يخطي ولا يمنعه ——— جلاله عن العطا لذي الخطا

سبحانه يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها، فله الحمد والمنة.

وغير ذلك من الفوائد والثمرات، وفقنا الله جميعا إلى التوبة والاستغفار، ومنحنا هذه الفوائد والثمرات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

حكم لعن الشيطان

السؤال : هل يجوز لي لعن الشيطان في كل ذنب اقترفه أو إذا وسوس لي بسوء أفيدونا جزاكم الله خيرا.

الجواب :

الحمد لله. لا شك أنه ورد في كتاب الله لعن الشيطان. قال تعالى: «إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا لعنه الله». وهذا يدل من حيث الأصل جواز لعن الشيطان لأن اللاعن للشيطان في الحقيقة مخبر عن لعن الله له موافق لحكم الله فكلامه حق وصدق في كون الشيطان مطرود من رحمة الله مخلد في النار.

لكن ورد في السنة النهي عن سب الشيطان واللعن في معناه كما في حديث أبي تميمة الهجيمي عمن كان رديف النبي صلى الله عليه وسلم قال كنت رديفه على حمار فعثر الحمار فقلت تعس الشيطان فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم الشيطان في نفسه وقال صرعته بقوتي. فإذا قلت بسم الله تصاغرت إليه نفسه حتى يكون أصغر من ذباب». رواه أحمد.

وهذا يدل دلالة واضحة على كراهة لعن الشيطان وسبه والمبالغة في ذلك لأن ذلك يقوي كيد الشيطان ويجعله يكبر في نفسه ويرى أنه قد نال من المؤمن ويضعف المؤمن غالبا لأنه يتكل على اللعن ويتقاعس عن العمل وهذه حيلة العاجز فيصير كلما أصابه مكروه أو ذنب أو وقع في غفلة جعل يلعن الشيطان ويسبه فقط وهذا يسبب له هزيمة نفسية أمام عدوه اللدود.

ولذلك كان المشروع للمؤمن حينئذ التعوذ من الشيطان كلما اقتضى الحال أو سنحت له فرصة وهذا هو الذي ينفع المؤمن ويكفيه شر الشيطان وشركه وهمزه ونفثه ويكبت كيده. وقد أمر الله بذلك عند نزغه قال تعالى: «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم». وشرعت الاستعاذة عند ابتداء العبادة حتى يتخلص المؤمن من الوساوس التي تفسد العبادة أو تضعفها كما قال تعالى: «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم». وشرعت أيضا عند دخول المسجد وعند الشروع في الصلاة وعند الوسواس فيها وعند الدخول إلى الخلاء وعند رؤية الإنسان ما يكره من الرؤى في منامه وعند الجماع وغير ذلك من الأحوال التي يتسلط فيها الشيطان على العبد أو يكون مظنة لذلك فيستحب للمؤمن حينئذ التعوذ والاعتصام بالله من الشيطان. أما لعنه والإكثار منه والمداومة على ذلك فغير محمود ويفتح باب شر على المؤمن.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير التعوذ من الشيطان في كثير من أحواله كما ثبت في جملة من الأحاديث الصحيحة.

أما حديث عن أبي الدرداء قال: «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعناه يقول أعوذ بالله منك ثم قال ألعنك بلعنة الله ثلاثا». رواه مسلم. فهذا الحديث على خلاف الأصل وهو محمول على حال خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم عند مجاهدة الشيطان أو يكون اللعن مشروعا مع اقترانه بالتعوذ وليس فيه دلالة على لعنه حال الانفراد. والحاصل أن المشروع للمؤمن غالبا هو التعوذ من الشيطان وترك سبه ولعنه لاسيما عند حدوث الغفلة والبلاء ويسوغ لعنه إذا كان على سبيل الإخبار عن الله أو لبيان الجواز ولا ينبغي المواظبة على ذلك.

والله الموفق وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

بستاني في صدري

• لا أجد مثالاً لبيان أنّ السعادة أمر داخلي أبلغ من قول الإمام ابن تيمية رحمه الله «ماذا يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أنى رحت فهي معي». فسعادة المؤمن نابعة منه لا منعكسة من خارجه .. لا يستطيع أحد أن يأخذها إلا أن تعطيها له. وبالمقابل الانفعالي هو الذي تنبع عاطفته من المجتمع والظروف من حوله. يفرح عندما يعامله مجتمعه معاملة جيدة ويحزن لعكس ذلك .. ويفتح الباب لآراء الآخرين وقصورهم ليتحكم فيه.

إنّ الشخص المسؤول هو الذي يقدم المبدأ على النزوة، بينما الانفعالي هو الذي يجرفه تيار الأحاسيس والظروف والبيئة بعيدا عن مبادئه .. المسؤول هو الذي يقف ويقول أنا في هذا الوضع نتيجة للاستجابات السابقة «صحيحة كانت أم خاطئة» للمؤثرات التي قابلتني، ويختار الاستجابة الصحيحة لما يحدث له نعماء أو ضراء، مهتديا بمبادئه، ولا يهم حينها ما يحدث فكله خير إن كانت الاستجابة صحيحة.

المسؤولية تقتضي ألا ننجرف وراء ردود الأفعال إننا حين نفعل ذلك نقع في جملة أخطاء، أهمها أننا نخرج عن مبادئنا إلى مبادئ الآخرين .. والله يأمرنا ألا نفعل ذلك في قوله تعالى: «قل كل يعمل على شاكلته». فالشاكلة فسرت بالطريقة والمنهج.

و أننا نتنازل عن حقنا في اختيار استجابتنا، ونجعل المؤثر ينتج استجابة آلية، فنتصرف تصرفا غريزيا، فنصبح كالأنعام التي حرمت نعمة الاختيار، و إننا نفقد المبادرة ونملك الشخص المنفعل به مسؤولية أن يختار لنا سلوكنا. قرأت في مجلة «الريدرز دايجست» قصة مفادها أن رجلاً سار برفقة صديقه لشراء الصحيفة اليومية، فقابل بائع الصحف ببسمة عريضة وتحية طيبة، وأعطاه الثمن بأسلوب مهذب وطلب منه الصحيفة، في المقابل كان البائع مقطوب الجبين فظ الأسلوب بارد التحية .. أخذ الرجل الصحيفة وشكر البائع بعبارات رقيقة وابتسامة أرق وانصرف .. في الطريق سأل الصديق الرجل: لماذا عاملك البائع بهذه الطريقة؟ فأجاب أنه يتصرف هكذا في كل يوم، فغضب الصديق وقال للرجل: يفعل هذا كل يوم وأنت تتلطف به في كل يوم؟ فأجابه الصديق: نعم أنا أكبر من أن أعطيه حق أن يقرر لي كيف أتصرف، أنا أحب أن أعامل الناس باحترام ولن أسمح له أن يخرجني مما أحب إلى ما يحب.

وأخيرا فالتصرف الانفعالي ليس فيه قوة. أرأيت إلى الحائط الذي يصد الكرة بقوة أيقال أنه قوي أم أن الرامي الذي بدأ الفعل قوي؟ إن الحائط الذي يختار أن يمتص الضربة ولا يصد الكرة ويفكر كيف يستجيب هو القوي. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» املك نفسك واختر استجابتك، تلك هي القوة.

من خاف أدلج

• قال الراوي: خرجت من منزلنا والليل لما ينجلي، والصبح لما يتنفس، كان النسيم رخاء، و كانت الظلمة تكتنف المكان، إلا من أشعة ضوء واهيات؛ يبعثها القمر على استحياء، سرت في طريقي لأقرب مخبز، ولم يقطع عليّ ذلك الهدوء إلا بعض كلاب لازالت تحتفظ الود لمهنتها وترفض أن تنسب كغيرها من رفيقات الدرب، وصلت إلى المخبز فإذا بالخائفين المدلجين كثر، وقفت كغيري في الصف، كانت الحياة هناك زاخرة، فالرجال يتحدثون في ما آلت إليه البلاد: البعض واقف في الصف والآخر يسند ظهره إلى حائط المخبز، بعض النساء افترشن الأرض، وبين فينة وأخرى تستيقظ إحداهن وتفرك عينيها وتسأل: «العيش لسه ما طلع» ثم تعود لوضعها الأول ربما قبل سماع الإجابة، أما الأطفال فكأن الليل نهار، ينتشرون هنا وهناك ويتضاحكون، وينادي بعضهم بعضا، حتى أسماؤهم شعت بشرا وتوقدت جمالا واكتست وقارا كوقار ذلك الليل، فهذه جويرية وذاك مصعب وتلك شيماء، قلت في نفسي لحظتها: كم تكلف هؤلاء الصغار فوق طاقتهم، إن نار الضائقة المعيشية في بلدي تنضج الأطفال سريعا، ولكنها مثل نار «القمائن» إن زادت عن الحد المطلوب أخرجت طوبا تالفا قويا لا يبني مجتمعا ولا يؤسس حضارة.

قال الراوي: لحظتها قرع سمعنا صوت السماء لأهل الأرض ينادي: الصلاة خير من النوم، فقلت لجاري في الصف: راقب هذا الكيس حتى أعود من الصلاة، وتحركت نحو المسجد الذي لا يبعد كثيرا عن المخبز قال جاري: أنا أيضا أداوم على الصلاة في المسجد فلنذهب معا.

قال الرواي: قلت لجاري في الطريق: مالي أراك تكثر الصمت ؟ أتراك تفكر في هم المواصلات والإفطار بالمدرسة وغيره، قال لي: لا والله، ولكني تعجبت من هؤلاء الذين خافوا أن يأكلوا وجبة واحدة من دون خبز، فأدلجوا في ليل بهيم إلى هذا المخبز، وعندما دعاهم المؤذن إلى الصلاة لم يخافوا ولم يدلجوا، أتراهم يلبون داعي البطن ويردون داعي الروح؟ أتراهم نسوا قول الرسول صلى الله عليه وسلم: بشر المشائين في الظلم بالنور التام يوم القيامة.

قال الراوي: لحظتها أحسست كم أمتنا في حاجة إلى مثل هذا الطالب الناضج، وقلت في نفسي: لابد أن حرارة الإيمان خففت نار الضائقة المعيشية، وأدت إلى هذا النضج الطيب وعجبت لحرارة تخفف نارا.